د. هنیدة غانم •

بحكم الأمر الواقع:

هل كانت حرب ١٩٦٧ طقس تطهّر لإسرائيل؟

حلت في الخامس من حزيران الماضي الذكرى الحادية والأربعون لحرب ١٩٦٧ واحتلال بقية أراضي فلسطين التاريخية. وقد مرت الذكرى هذا العام من غير أن تثير الكثير من الاهتمام الإعلامي أو السياسي. وعلى الرغم من ذلك، ورغم اجتياح الاحتلال ببيروقراطيته القمعية مجمل حياة الفلسطيني في الأراضي المحتلة منذ ببيروقراطيته القمعية مجمل حياة الفلسطيني في الأراضي المحتلة منذ من أجل تقييم آثاره ليس على المستوى الحياتي والآني فقط - رغم من أجل تقييم آثاره ليس على المستوى الحياتي والآني فقط - رغم صيرورة الصراع أولا وصورة إسرائيل ثانيا. ويتم ذلك من خلال العمل على كشف دور الحرب وما نتج عنها في خلق خطاطات ذهنية جديدة لتوصيف إسرائيل كدولة مختلفة عما كانت عليه قبل هذه الحرب. من هنا، أقترح إعادة قراءة حرب ١٩٦٧ ليس بوصفها فعلا عدوانيا فقط، بل بوصفها طقسا سياسيا وثقافيا تطهريا أسهم في نقل عدوانيا فقط، بل بوصفها طقسا سياسيا وثقافيا تطهريا أسهم في نقل

إسرائيل من دور الدولة المستعمرة إلى دور الدولة المحتلة، حيث تمثل هذه النقلة مرحلة مفصلية وإستراتيجية سواء في الداخل الإسرائيلي أو في الدائرة الدولية، شرعنت وطبعت إسرائيل إلى حد بعيد بسبب نقل الخطاب من ١٩٤٨ إلى الاحتلال وسبل معالجته. وتعد هذه النقلة مفصلية بسبب ما أنتجته من خطاب مكثف ومطالبات دولية متواترة، تطالب بعلاج آثار الاحتلال كما لو أنه حدث طارئ وخارج السياق التاريخي، من غير أن يُقرأ بوصفه جزءا من حالة استعمارية مترابطة أنتجت في المرة الأولى دولة على أنقاض شعب، وفي المرة الثانية استدرجت منظومتها الاستعمارية من أجل العمل على محو بقية هذا الشعب رمزيا.

لقد عاشت إسرائيل قبل ١٩٦٧ على صدى الخوف من عواقب إقامة دولتها على أنقاض شعب آخر، ليس من خلال محاسبة النفس بل من خلال العمل الدؤوب من أجل تثبيت نتائج ١٩٤٨ وطرد أبناء الشعب الفلسطيني، وسنت من أجل ذلك قوانينها الخاصة التي تجعل إقصاء الفلسطيني من وطنه ممأسسًا، وتؤسس مشروعها

^{*} مدير عام المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار.

ولو كان لنا أن نعيد من جديد كتابة تاريخ ولادة وتطور "دولة إسرائيل"، لكنا وصلنا إلى نتيجة واضحة مفادها أن الاحتلال العسكري لبقية أراضي فلسطين شكل إلى حد بعيد "طقس تطهر" أخرج إسرائيل من خانة الدولة المستعمرة وأدخلها في خانة الدولة المحتلة. ورسم بذلك حدودا جديدة لطرق التعامل معها بوصفها دولة طبيعية حتى لو اعتدت على دول أخرى أو على أراضي الغير، وبمعنى آخريمكن أن نقرأ حرب ١٩٦٧ بوصفها طقس عبور دخلت إسرائيل عبره بوابة العالم الطبيعي والدولة الشرعية، بل إن الخطاب الإسرائيلي استدخل هذا الواقع وذوته كحقيقة.

الصهيوني لدولة يهودية، وعملت على بناء ترسانتها النووية من أجل خلق حالة ردع مقابل أي سعي لتغيير هذا الواقع، محولة فكرة جابوتينسكي بشأن "سياسة الجدار الحديدي" إلى منظومة تعامل مع الآخر. ومن نافل القول أن هذه السياسة ترافقت مع تصنيع مستمر لوعي إسرائيلي يرى نفسه مدافعا عن حقه في الوجود مقابل عرب معادين يحاولون إلقاءه في البحر.

عربيا نظر إلى هذه الدولة بوصفها حالة طارئة وعابرة وبالتأكيد غير طبيعية ، ولم يكن أي صحافي يجرؤ على توصيفها بغير "الدولة المزعومة"، وإن كان لحرب ١٩٦٧ من أثر فهو نقلها من مرحلة "الدولة المزعومة " إلى دور الدولة "المحتلة " ، التي مهما حاولنا أن نظهر بشاعة احتلالها وعنصريته، فإنه يبقى رغم كل المناكفة والغضب عملا قابل للشرعنة والتفهم (إلى حدما) من ناحية القانون الدولي، خاصة إذا ما سيق بوصفه دفاعا عن الذات، تماما كما سيق احتلال أفغانستان، على كل ما حدث بالضبط. وحتى لو لم يقتنع أي طرف عربي أو دولي بهذا الادعاء الإسرائيلي فان الاحتلال بأبشع صوره يبقى بحسب تعريفه العسكري الجاف عملا حربيا تقوم به دولة ويؤدي إلى سيطرتها بالقوة على أراض ليست لها، حيث تصطف عادة الأطراف الدولية لمطالبتها بوصفها دولة شرعية (وذلك بمجرد التوجه إليها، ومناشدتها من كل منابر العالم!) من أجل العدول عنه. وتكمن سخرية الواقع في أن المناشدات الدولية المتراكمة من جهة ، والمشاريع الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي التي وضعت إسرائيل يدها عليها بعد ١٩٦٧، من جهة أخرى، تفضى إلى إزاحة النقاش من التساؤل عن حق المشروع الصهيوني بوصفه مشروعا استعماريا في تحقيق ذاته على أنقاض شعب فلسطين وما نتج عنه خلال ١٩٤٨ ، إلى النقاش حول عدم شرعية

الاحتلال العسكري لأراضي الغير بالقوة. ولو أمعنا النظر قليلا في ذلك لرأينا انه يحمل فيما يحمل اعترافا ضمنيا - ولو على طريقة السلب- أن الطرف الذي قام بالعمل الاحتلالي، هو أصلا دولة شرعية، وإلا لما كانت هناك حاجة لمطالبتها عن العدول عن عملها هذا بالذات! بل على العكس بمطالبتها بمراجعة مشروعها الكامل، إذ تحمل المناشدات والقرارات اعترافا استطراديا أن الأراضي التي سيطرت عليها إسرائيل خلال العام ١٩٤٨ وطردت أبناءها منها هي أراضيها الشرعية فيما تتحول الأراضي التي سيطرت عليها العام ١٩٦٧ إلى أراضي "الغير" التي يحل النقاش في تفاصيل "تحريرها" من هذا الواقع الكئيب والمحزن، على الأقل دوليا، محل أي نقاش آخر. من نافل القول إذن أن إسرائيل استطاعت بحكم الأمر الواقع الذي نتج بعد ١٩٦٧ الدخول إلى جماعة الدول الشرعية حتى لو من باب اعتداء جديد، فالاحتلال العسكري بمجرد تعريفه يبقى عملا مكروها حينا أو جنحة يعاقب من قام بها طبقا لدرجة تأثير ذلك على علاقات القوة الدولية حينا آخر (من هنا مثلا عدم التسامح مع احتلال الكويت مقابل التسامح مع الاحتلال الأميركي للعراق)، وعلى هذا المنوال فإن الاحتلال العسكري لأراضي الغيريظل شكلا من أشكال العنف " الشرعي " في العرف الدولي، لأنه نظريا على الأقل جزء من خيارات الدول ومن أدواتها، في حين أن تأسيس مشروع دولة على أنقاض شعب آخر هو جريمة إنسانية كبرى لأنه فعل إحلالي عنصري يقوم على المحو الفعلى والرمزي للآخر وتحويل بيته وسرير نومه وسوق بلدته إلى موطن المستعمر الذي يسميه كما يريد ويرسم خارطته وتاريخه بما يخدم منظومته الإيديولوجية والفكرية من دون أدنى التفاتة لساكنها الأصلي.

لقد أحدثت حرب ١٩٦٧ التي أسميناها عربيا نكسة ما لم تحدثه محاولات إسرائيل المستميتة قبل ذلك من أجل الاعتراف بها دوليا، حيث خلقت نقلة ابستمولوجية إستراتيجية نتج عنها انزياح في اللغة وفي المرجعية، وبدأت تحل تدريجيا لغة سياسية جديدة ومناخ فكري مختلف ومشاريع تسوية متعددة، تحول فيها الخطاب حول إسرائيل من خطاب يناكفها بوصفها حالة استعمارية إلى خطاب يناكفها بوصفها دولة محتلة، حتى لو كان الاحتلال أحد أدوات مشروعها الاستعماري الاحلالي.

ولو كان لنا أن نعيد من جديد كتابة تاريخ و لادة و تطور "دولة إسرائيل"، لكنا وصلنا إلى نتيجة واضحة مفادها أن الاحتلال العسكري لبقية أراضي فلسطين شكل إلى حد بعيد "طقس تطهر" أخرج إسرائيل من خانة الدولة المستعمرة وأدخلها في خانة الدولة المحتلة. ورسم بذلك حدودا جديدة لطرق التعامل معها بوصفها دولة طبيعية حتى لو اعتدت على دول أخرى أو على أراضي الغير، وبمعنى آخر يمكن أن نقرأ حرب ١٩٦٧ بوصفها طقس عبور دخلت إسرائيل عبره بوابة العالم الطبيعي والدولة الشرعية، بل إن الخطاب الإسرائيلي استدخل هذا الواقع وذوته كحقيقة، إذ أصبح يتعامل مع الاحتلال بوصفه حملا قاسيا يجب التخلص منه من أجل العودة إلى الزمن الجميل الذي سبقه: زمن إسرائيل النقية قبل هذه الجنحة، تاما كما يوضح يهودا شنهاف في مقالته ضمن محور هذا العدد من "قضايا إسرائيلية"، وهي بعنوان: زمن الخط الأخضر!

لقد كان عالم الإنسان الفرنسي Van Geneep قد صك عام ١٩٠٨ مصطلح طقس العبور وذلك من أجل توصيف الطقوس الاجتماعية المتبعة لنقل الفرد من حالة اجتماعية واحدة إلى حالة أخرى في المجتمع الإنساني. وتشير طقوس العبور إلى انتقال الفرد مثلا من حالة العزوبية إلى حالة الزواج ومن الطفولة إلى البلوغ بل حتى من نقل الفرد من هوية خصوصية إلى هوية جماهيرية عبر تقليده وظيفة رسمية وهكذا دواليك. وعادة ما تشمل طقوس العبور ثلاث مراحل أساسية: مرحلة الانفصال والإبعاد، حيث يتم خلالها فصل وإبعاد الفرد أو الجماعة المقصودة عن باقي أفراد المجتمع وسلخه عن دوره الاجتماعي حتى تلك اللحظة. مرحلة العتبة - أي مرحلة البين بين، فيها وخلالها لا يعود الفرد أو الجماعة يمتمتان بالمكانة أو الدور الاجتماعي السابق ولكنهما وفي الوقت يتمتعان بالمكانة أو الدور الاجتماعي السابق ولكنهما وفي الوقت

نفسه لم يدخلا بعد إلى مكانتهما أو دورهما الجديد. المرحلة الثالثة والأخيرة، هي مرحلة الدخول إلى مكانة جديدة ودور جديد حيث يتم قبول الفرد المقصود أو الجماعة بوصف كل منهما عضوا شريكا وشرعيا من قبل الأفراد والجماعات الذين يشتركون بنفس المكانة والدور.

وتشكل طقوس العبور في علم الإنسان خاصة والعلوم الاجتماعية والإنسانية عامة إحدى الأدوات التي تتبعها قبائل ومجتمعات وجماعات من أجل الإعلان رسميا عن أدوار الفرد الجديدة. وتزخر الدراسات البحثية بمئات الأمثلة لطقوس العبور التي تعتمدها مجتمعات مختلفة سواء على مستوى الفرد أو المجتمع من أجل ترسيم أدوار الفرد أو الجماعة الجديدة. وتشمل هذه الطقوس على سبيل المثال لا الحصر المراسيم التي يتم إتباعها في حالات الزواج والموت والبلوغ. إذ تعتمد مثلا الكثير من المجتمعات طقوسا خاصة للزواج تحمل الكثير من الرموز والإشارات وتكون بمثابة أداة وظيفية رمزية للإعلان على الملأ عن انتقال الفرد من حياة العزوبية والعذرية إلى حياة الزوجية. ومن المهم أن نشير إلى أن الفرد المعنى خلال الطقس وتنفيذه يكون في حالة بينية مبهمة ، فهو ليس متزوجا بعد ولكنه أيضا لم يعد أعزب تماما، حيث يكون خلال المراسيم في حل من دوره السابق وما يحمله هذا من توقعات منه، ولكنه أيضا وفي نفس اللحظة، ما زال خارج دوره الجديد وما يحمله أيضا من توقعات ، إنه بين الحالتين ليس داخلهما تماما ولكنه ليس خارجهما تماما، أو كما نقول عادة في كتابتنا الدارجة أو لغتنا اليومية: على عتبة دور جديد. ولا تكون المراسيم الطقسية إلا المركب الرمزي الذي ينقله من عتبة الدور إلى داخله. هكذا نجد على سبيل المثال أن طقوس التعميد في المسيحية هي أداة رمزية يتم إتباعها من أجل نقل المولود من عالم الطبيعة اللاديني عند الولادة إلى عالم المسيحية الديني حيث يتم منحه، خلال طقس التعميد، هوية دائمة تحدد عمليا أدواره المتوقعة منه مستقبلا، كما يمكننا النظر إلى مراسم الوضوء عند المسلمين بوصفها طقسا يستهدف نقل الفرد من حالة النجاسة إلى الطهارة، وعلى هذا المنوال يمكننا أن نفهم العديد من الطقوس الدينية أو الثقافية التي تنقل الفرد من حالة إلى أخرى. من المهم هنا التشديد على أن الانتقال من حالة إلى أخرى عبر طقوس العبور، ينتج هويات جديدة تلزم الفرد

ورغم تركيز الباحثين عادة على الطقوس الاجتماعية – الثقافية التي تخص نقل الفرد من حالة إلى أخرى، إلا أن الإضاءات المفاهيمية التي توفرها طقوس العبور تسعفنا كثيرا في فهم حالات اجتماعية جماعية يتم فيها انتقال جماعي من مكانة اجتماعية إلى أخرى، مثل الانتقال من المواطنة إلى اللجوء أو على مستوى الدول التي تنتقل من مكانة سياسية إلى أخرى، كالانتقال من الديمقراطية إلى الدكتاتورية من خلال انقلاب عسكري أو العكس. وهي أداة مهمة بالذات لاستحداث قراءة جديدة للعلاقة بين الحرب بوصفها طقسا له مراسيمه العملية والرمزية وبين إعادة صياغة الجماعات التي تخوضها وتشكلها في دور جديد.

بالتصرف بحسب شيفرتها الثقافية والاجتماعية وفي حالة عدم التزامه بها قد يلزم بدخول طقوس جديدة للإعلان على الملأ عن نزع الدور عنه، لكنه لا يكون قادرا أبدا على إعادة العجلة إلى الوراء بل يقلد دورا آخر جديدا، تماما كما يحدث عندما يعلن زوج عن حل عقد زواجه إذ أنه يصبح مطلقا في اللغة الرسمية ولا يمكن أن يعود عازبا على الإطلاق.

ورغم تركيز الباحثين عادة على الطقوس الاجتماعية- الثقافية التي تخص نقل الفرد من حالة إلى أخرى، إلا أن الإضاءات المفاهيمية التي توفرها طقوس العبور تسعفنا كثيرا في فهم حالات اجتماعية جماعية يتم فيها انتقال جماعي من مكانة اجتماعية إلى أخرى، مثل الانتقال من المواطنة إلى اللجوء أو على مستوى الدول التي تنتقل من مكانة سياسية إلى أخرى ، كالانتقال من الديمقراطية إلى الدكتاتورية من خلال انقلاب عسكري أو العكس. وهي أداة مهمة بالذات لاستحداث قراءة جديدة للعلاقة بين الحرب بوصفها طقساله مراسيمه العملية والرمزية وبين إعادة صياغة الجماعات التي تخوضها وتشكلها في دور جديد. وقد تكون حرب ١٩٦٧ أحد أهم الأمثلة لفهم علاقة الحرب بتحول صورة إسرائيل من ظاهرة استعمارية قبلها إلى دولة شرعية رغم كونها محتلة بعدها. حيث تنبع أهمية الحرب من إنتاجها لخطاطات ذهنية وقوالب فكرية تنتج صورا جديدة عن الذات وتنتج أشكالا من الهيمنة الفكرية تتعدى من حيث صلابتها الدور التقليدي للإيديولوجيات، وتؤسس لعلاقات جديدة للتعامل معها.

إعادة صياغة صورة الذات-الحنين إلى إسرائيل الطبيعية قبل ١٩٦٧

يكمن أحد إفرازات حرب ١٩٦٧ في إعادة إنتاج صورة إسرائيل قبل الاحتلال بوصفها دولة مثالية، وذلك طبعا من وجهة النظر الإسرائيلية التي كتبت مؤخرا وبأثر رجعي تصورها لها. وفي معرض مقالته زمن الخط الأخضر، يكتب يهودا شنهاف بأن الكتابات التي بدأت تتراكم بعد حرب ١٩٦٧ تحمل معها حنينا قويا لإسرائيل "المشروعة"، كما كانت قائمة في حدود الخط الأخضر قبل الاحتلال. ويشير إلى أن هذه الكتابات تحمل حنينا للزمن الحيزي للخط الأخضر بوصفه فكرة أسطورية، بدأ يتشكل ويمتلئ أكثر فأكثر بالخيال الثقافي، مضيفا أن الزمن الأسطوري هو زمن يوضع خارج التاريخ ويحتل مكانة مستقلة فوق تاريخية . وفي هذا المضمار من الممكن قراءة كتاب "الزمن الأصفر " لدافيد غروسمان بوصفه مثالا أساسيا في هذا الحنين الذي ينظر إلى احتلال حرب ١٩٦٧ بوصفه "حادثا" طارئا في التاريخ السياسي لإسرائيل، وكشيء مؤقت سينتهي بالعودة إلى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧. كما يأتي كتاب يوسى سريد "وعليه اجتمعنا: تاريخ بديل "ليشدد على "طبيعية إسرائيل قبل ١٩٦٧ "حيث كتب: "العقد الثاني للدولة كان عقد (الحياة) الطبيعية . . . من الذي كان يعتقد في العام ١٩٦٥ أن البلاد (الدولة) بأكملها ستجد نفسها بعد قليل، بعد سنتين فقط، مصابة بالجنون والعمى ". ويصنف سريد سنة ١٩٦٧ كسنة فوضى وبداية النهاية للدولة العلمانية.

ويلخص شنهاف أن الحنين إلى إسرائيل قبل ١٩٦٧ هو حنين إلى إسرائيل طبيعية مثالية ، وأن الغضب الذي يكتب به بعض السياسيين الإسرائيليين عن الاحتلال هو غضب على جنحة قامت بها دولة مثالية، شوهت سمعتها وصورتها. وتكمن أهمية هذه الكتابة في خروجها تماما من الزمن الاستعماري والتاريخي لإسرائيل، التي كانت قبل هذه الحرب تؤسس مشر وعها على قوننة طرد الفلسطينيين من بلادهم، وقمع من بقى يعيش فيها، أي برسم صورة لإسرائيل المرغوبة والمنزوعة عن سياقها الاستعماري، ليصبح الغضب على الاحتلال العسكري الإسرائيلي والموقف الرافض للأعمال العدائية للمستوطنين فقط الإطار العام الذي يحدد بحسبه الموقف الأخلاقي الإسرائيلي. وتتنكر النظرة النوستالجية إلى إسرائيل المثالية لأبسط الحقائق التي تعيد أريئيلا أزولاي حبكها بشكل نقدي، وهي أن إسرائيل كانت تؤسس بعد إقامتها لنظام ظلامي وتستخدم ما يسميه والتر بنيامين العنف المؤسس من أجل ترسيخ نظامها هذا، حيث تشير أزولاي إلى أن طرد "سكان البلاد العرب لم يكن عملا أو شيئا خارجا بالنسبة للنظام، كما أن إخضاع سكان الدولة العرب (للحكم العسكري) لم يكن مؤقتا، بل تحول إلى مبادئ بنيوية لهذا النظام، الذي استكمل خلال عامه الأول عملية الطرد الواسعة لسكان البلاد العرب".

إن ما يكتبه شنهاف وأزولاي هو محاولة جادة لإعادة صياغة صورة إسرائيل من جديد منذ إقامتها على أنقاض الشعب الفلسطيني، حيث يتحول الاحتلال إلى أحد نتائج وإفرازات

المشروع الاستعماري، وليس حدثا عارضا لدولة مثالية. لكن الأهم يبقى أن الاثنين يقران أن الاحتلال عام ١٩٦٧ كان مفصلا مهما لإنتاج هيمنة استعمارية جديدة تزيح كل النقاش من المشروع الاستعماري وأدواته إلى النقاش حول عمل ما غير شرعي قام به، ليتحول الصراع بعد هذا الاحتلال إلى صراع بين يمين ويسار يرغب الأول في الحفاظ على الوضع الجديد الذي خلق بعد الحرب، في حين يسعى الثاني إلى العودة إلى زمن ما قبل الحرب: الزمن المثالي والطبيعي. بل ويتحول اليميني، الذي يناقش بعض خيارات "ترتيب الواقع"، كما يفعل غيورا أيلاند في مقالته حول الحلول البديلة التي تطالعونها في المحور نفسه، إلى يميني براغماتي، في حين ينظر إلى من يرفض حلوله بوصفه يمينيا متشددا.

مهما يكن النقاش الذي تشكل داخل إسرائيل بعد ١٩٦٧، ومهما تكن المواقف التي صيغت بلغة اليسار الصهيوني أو اليمين المسياني، فإن حرب ١٩٦٧ تحولت في خطاب الاثنين إلى مرحلة مفصلية. فالأول نظر إليها بوصفها انحرافا عن الزمن المثالي وخروجا عن دور الدولة المرغوب فيه، فيما نظر الثاني إليها بوصفها استكمالا لتحرير أرض الميعاد ليعيد بشكل ساخر النظر إليها بوصفها جزءا من مشروع كبير، وهو بالضبط ما يحاول اليسار الصهيوني رفضه وإلغاءه من ذاكرته. وتكمن أهمية هذه النظرة في كشفها عن ازدواجية خطاب اليسار الصهيوني، لأنه اعتمد حرب ١٩٦٧ كطقس تطهيري، كي يخرج من زمن المستعمر ويدخل زمن الدولة، الذي يكتب من خلاله يخرج من زمن المستعمر ويدخل زمن الدولة، الذي يكتب من خلاله تاريخ الدولة كما يريده وليس كما كان، وما زال!